السخرية السياسية في شعر محمد الأسمر

تميز الشاعر "محمد الأسمر" (١٩٠٠- ١٩٥٦م) من بين شعراء جيله بقدرة فائقة على الإبداع في مجال الشعر الفكاهي الساخر وإن لم ينزلق إلى حد استعمال الألفاظ العامية كما فعل معاصروه ممن أبدعوا فن الشعر الساخر المسمى بالحلمنتيشي الذي اختلف عن غيره بهذا المزج المتعمد بين الألفاظ العامية والفصحى مع الحفاظ على الوزن سليماً، والقافية محكمة.

لكن شعر الشاعر الأسمر الفكاهي احتفظ بالمهابة التاريخية للقصيدة الخليلية ممثلة في جزالة الألفاظ، وقوة المطلع، والعناية بالمحسنات البلاغية التقليدية وإلى جانب ذلك، التزم الشاعر "الأسمر" ما التزمه معاصروه الشعراء من عدم التبذل الخلقي، واختار لشعره الفكاهي موضوعات ذات مضمون اجتماعي خلقي، وحتى في أشعاره الشخصية التي مثلتها تلك المداعبات الإخوانية بينه وبين أصدقائه لم يزل قلمه إلى الإسفاف والابتذال وكانت سخريته دائماً "نظيفة" إن جاز هذا الوصف.

ومن روائع الشعر الفكاهي عن "الأسمر" ما خص به الحياة السياسية المصرية في عصره من سخرية مريرة، ونقد لاذع ، لما كان يسود تلك الحياة السياسية من تزييف وتزوير ومهاترات وسنختار منها مثالين:

الأول: انتخابات البرطمان:

تشكك الأسمر في جدوى الانتخابات النيابية ، وكان في مصر آنذاك مجلسان : مجلس للنواب وآخر للشيوخ ، وكان الأسمر يرى أن ما يجري في انتخابات المجلسين هو في الواقع "تمثيل" من السلطات الحاكمة على الشعب بدعوى اختيار "ممثلين" للشعب!! فليس هناك مجال لنجاح مرشح جاد يستطيع أن يعارض معارضة قوية، فالأمر لا يعدو كونه "تعييناً" مقنعاً، وإن تم في شكل انتخابات فهو يقول:

وقيل انتخابٌ قلتُ في الشكل وحده (كشوفُ) و(أصوات) وكلَّ مُعَيَّنُ

فما ناجحٌ إلا المرادُ نجاحهُ ولو أنَّهُ كَلٌّ على الناس هَيِّنُ

لقد بات وادي (النيل) نَهْبا مقسَّما ولا تَطْلبوا البرهانَ فالأمرُ بيّنُ

هذه الانتخابات الزائفة تجر على البلاد بلاء كثيراً، وبخاصة إذا أدت إلى إثارة الفتن بين العائلات، وبث الشقاق الذي قد يتطور إلى نزاعات مسلحة يسقط فيها القتلى والجرحى والشاعر "الأسمر" يوجه خطابه في أبياته التالية إلى الأمة ساخراً من فهمها لمعنى الانتخابات ونتائجها، فالانتخابات غايتها اختيار نواب يتفقون ويختلفون حول قضايا مجتمعهم لكن اختلافهم لا يخرج عن حدود الكلام وتبادل الحجج ، أما أن يتحول الصراع إلى قتل وقتال فهذا مؤشر على سخف في تفكير الأمة، والتواء في فهمها للأمور، ودليل على انحدار مستوى الوعي السياسي لدى الأمة ،

فيقول شاعرنا :

دمـــاءٌ بـــين أهليهـــا تســـيلُ ... فَقَـــاتلُهمْ وإن يســـلمْ قتيـــلُ
طريـــقُ البرلمـــان طريـــق ســـلمٍ ... قُصـــارى أمـــرِه قـــالٌ وقيـــلُ
وألفـــاظٌ يـــدبِّجُهَا خطيـــبٌ ... وتصـــفيقٌ كثـــيرٌ أو قليـــلُ
ففـــيم تخـــذتموهُ طريـــقَ حـــربٍ ... وفـــيمَ القتـــلُ والهـــمُّ الطويـــلُ؟!
فيالـــك أمـــةً ســـارت فضـــلَّتْ ... وقـــد وضـــحتْ لســـالكها الســـبيلُ

ولم يكن مثقفو مصر وأدباؤها وصحفيوها في تلك الأيام- الربع الثاني من القرن العشرين- بمعزل عن الحياة السياسية، فقد نجح الأستاذ عباس العقاد في دخول البرلمان ممثلاً للأمة وسجن تسعة شهور حين دافع عن الدستور في مواجهة الملك فؤاد في قصة مشهورة، كما كان الصحفي اللامع الأستاذ "فكري أباظة" برلمانياً مرموقاً لعدة دورات. وحدث ذات مرة أن رشح أربعة من مشاهير الصحفيين أنفسهم ونجحوا في الفوز بعضوية البرلمان وهم الأساتذة، "مصطفى أمين" وشقيقه "علي أمين"، و"جلال الحمامصي"، و"كامل الشناوي"، وكانوا جميعاً أصدقاء لشاعرنا "محمد الأسمر" فأرسل إليهم تهنئة شعرية ضمنها تحذيراً شديداً من التقصير في أداء واجباتهم في البرلمان ، وطالبهم بالوفاء بما وعدوا به ناخبيهم أثناء دعايتهم. وبأن يحذروا الكسل والخمول فقال مخاطباً إياهم:

تهنئـــاتي: ثـــم كونـــوا عنـــدما ... قلـــتمُ قبـــل دخـــول (المجلـــسِ)
واحـــذروا (الكـــرسيَّ) كـــم مـــرَّ بـــهِ ... معشرُـــــ غـــيرُكمُ ثُـــمَّ نُسيـــ

لا تكونـــوا فوقـــهُ مثـــل الـــذي ... يحضرُ ـ (الجلسـةَ) مثـل الأخـرس
أو كَمَـــن يهتـــفُ للـــزور بـــه ... فـــإذا الحـــق بـــدا لم يَنْـــبِسِ
أو كَمَـــن ثروتُـــهُ تصـــفيقُه ... وهـــي عنـــدي رأسُ مـــال المُفْلـــسِ
أو كَمَـــن قيـــل لَـــهُ كُـــنْ فوقـــهُ ... صـــنماً، جئـــتَ لهـــذا فـــاجلسِ
أو كَمَـــنْ يشـــتمُ قومـــاً ظالمـــاً ... فهـــو يَعـــوِي كعُـــواء الأطلـــسِ
أو كـــرهطٍ فوقـــه سِـــيماهُمُ ... عَـــدمُ الفهـــمِ، وهّـــزُّ الأرؤسِ!!
أو كَمَـــنْ نـــام بـــهِ لـــيس لـــهُ ... مـــن وجـــودٍ فيـــه غـــيرُ الـــنَّفَسِ!!
أو كعُرْيـــــان رآهُ متجـــــراً ... فهـــو فيـــه قاعـــدٌ كـــي يكتسي ـــ

ثانياً : كرسي الوزارة :

وقد وقف الأسمر من مقاعد الوزارة موقفاً متشدداً، كما فعل معاصره الشاعر الفكه " محمد مصطفى حمام" في قصيدته الشهيرة التي قالها على لسان وزير يخاطب الكرسي الذي "التصق" به حيناً من الدهر ومطلعها:

تقبلتنـــي بـــالرغم منـــك نـــزيلاً ... فلا ترجُ مني – الدهر – عنك رحيلاً
نشـــدتك يـــا كـــرسيُّ إلا صـــحبتني ... طـــويلاً ولم تخطـــب ســـوايَ خلـــيلا
ولم تتـــبرم بالـــذي أنـــت حامـــلُ ... فـــإني لأخشـــى أن تكـــون ملـــولا
وإني لأخشـــى أن يُفَـــرَقَ بيننـــا ... فتـــورثني حزنـــاً عليـــك طـــويلا
وتشـمت بي خصـماً يُـروِّي نفوسَـهم ... هـــواني ويشـــفي للصـــدور غلـــيلا

أما "الأسمر" فلم يسلك مسلك حمام الشديد السخرية من نفسية الوزير المتشبث بكرسيّه، وإنما جاءت سخريته ذات طابع وطني عام، فلم يشغله أمر الوزراء بقدر ما شغله هذا التقلب المستمر والتغيير المتوالي للوزارات إرضاءً للقصر الملكي أو السفير البريطاني ولكنه لم يستطع الإفصاح عن كل ما كان يختلج في صدره من مشاعر فقال متحسراً على أحوال مصر آنذاك:

تَـــرُوحُ وزارة وتجـــيءُ أخـــرى ... ومصرُ تُقلِّبُ النظراتِ حيْرى

تَشِـــيمُ فـــلا تـــرى إلا بروقـــاً ... كـــواذبَ ربـــما أمطـــرنَ جمـــراَ

فيـــا وزراءَ مصرَ بكـــل عهـــدٍ ... لقـــد مـــلَّ الروايـــةَ شـــعب مصرـــا

أُجَمْجِـــمُ بالمقـــال وإن أشـــفى ... لنفسيـ أن أقـــول القـــول جهـــرا

أروني شـــاعراً حُـــرَّاً يُغَنِّـــي ... بـــما أهـــوى فلســـتُ اليـــوم حُـــرّا

تَعَشَّـــقْنا وصـــالحنا وهمنـــا ... بهـــا ومصـــالح الأوطـــان أحـــرى

فَـــوَا حزنـــا لمصرَ جَـــرتْ رحيقـــاً ... لمعتصرٍ يُجَرِّعُهَـــا الأمـــرَّا

عَجِبـــتُ لهـــا، تفـــيضُ بكـــل خـــيرٍ ... ولا تَلْقَـــى عـــلى الأيـــام خـــيرا

بهـــا مـــا شـــئتَ مـــن قمـــحٍ وقطـــنٍ ... ولكنّـــا نجـــوعُ بهـــا ونَعْـــرى

ولكننا نراه في قصيدة أخرى يبدو أكثر جرأة، وأشد صراحة فهو يصف مقاعد تلك الوزارات بأنها تحمل وزراء هم في الحقيقة دمى يحركها اللاعبون بها كيفما شاءوا، بحيث إذا تخلوا عنها سقطت وتحطمت والإشارة هنا تأتي واضحة

إلى تدخل بريطانيا السافر في تأليف الوزارات التي تأتي وتذهب وفق مشيئة المحتل الغاصب، فيقول الأسمر:

وزراتٌ يُـــراحُ بهـــا ويُغـــدَى ... فَقُـــلْ للحـــاملين لهـــا رُوَيْـــداً

دُمـــىً خَـــزَفٌ، وألـــواحٌ زُجـــاجٌ ... وإن لاحـــتْ حدائـــدَ أو أشـــدَّا

إذا يـــدُ ســـانديها أغْفَلتْهـــا ... تَبـــدَّى أمرُهـــا فـــيما تبـــدى

هَـــوَتْ فـــإذا بهـــا مـــتحطمات ... ولـــو لبســـتْ مـــن الفـــولاذ سَرْدا

و يوجه الشاعر "الأسمر" خطابه صريحاً إلى السفير البريطاني ومن يقفون خلفه من سادته الذين يحكمون مصر من قصورهم في لندن، فيصف أولئك الإنجليز بأنهم لا عهد لهم وبأنهم لا يحفظون حقوقاً ولا يرعون عهوداً، ولا يرقبون في الموالين لهم إلاً ولا ذمة ، بل إنهم يضربون بعضهم ببعض، ويؤلبون بعضهم على بعض كما فعلوا حين فرقوا بين سعد زغلول وعدلي يكن، وبين "النحاس " و"مكرم عبيد"، وغيره من نجوم ذلك الزمان، فيقول:

فيـــا أبنـــاءَ (لنـــدن) بعـــض هـــذا ... كفـــى عبثـــاً بنـــا ، عهـــداً فعهـــداً

إذا شِـــدتُمْ هـــدمتمْ بعـــد حـــينٍ ... فَمَـــنْ أحييْتُمُـــوهً فَقَـــدْ تـــردَّى؟!

ولـــيس لكـــمْ صـــديقٌ أو عزيـــزٌ ... ولكـــن تبتغـــونَ الكـــلَّ عبـــداً؟!

وقـــد تســـتبدلون بـــذاك هـــذا ... ولا تَخْشَـــوْنَ مـــن أحـــدٍ مَـــرَدَّا

ولَســـتُمْ ذاكـــرينَ لـــذاك ودَّاً ... ولســـتُمْ حـــافظينَ لـــذاك عهـــدا

تُـــديرُ يـــداكمُ كأســـاً سَـــقَيْتُمْ ... بهـــا مـــن قبـــلُ (عـــدليًّا) و(ســـعدا)

إذا هيـــــأتُم مَهْـــــداً لقـــــومٍ طَـــوَيْتُمْ في ثنايـــا المهـــد لحـــداً!!

ثم يوجه خطابه إلى وزراء مصر، أولئك المذبذبين الذين يقبلون أن يكونوا قطعاً في رقعة شطرنج يحركها القصر أو تحركها السفارة. فهم يسيرون حسب ما تسير بهم أمواج السلطة التي جاءت بهم إلى مقاعدهم، فيقول:

فيـــا وزراء مصر ـــ بكـــل عهـــدٍ أرى عِقْـــدَ الـــوزارة صـــار قيْـــدا

وكـــلُّ ســـفينةٍ نزلـــت ببحـــرٍ أطاعـــتْ موجَـــهُ، جَـــزْراً ومَـــداً!!

ولم يختلف الأمر كثيراً بعد ثورة ١٩٥٢م، فقد ظل أعضاء البرلمان "يعينون" في صورة منتخبين، فقال الشاعر الشاب "هاشم الرفاعي" يصف أولئك النواب في أول برلمان بعد الثورة مخاطباً عبد الناصر:

هـاهم ، كـما تهـوى ، فحـركهم : دمـى لا يفتحـون - بغـير مـا تهـوى – فـما !!

فهل تغير الحال كثيراً بعد ٦٠ أو بعد ٥٠ عاماً من تلك الأحداث؟!! لا تظن. !!